

اعداد البحث

الحياة الاجتماعية في عهد الخليفة

العباسي المعتصم بالله

الكاتب

عصام سمير فتحي دلول

الحياة الاجتماعية في عهد الخليفة

العباسي المعتصم بالله

تعريف بالخليفة

أبو عبدالمجيد "المستعصم بالله" عبد الله بن منصور المستنصر (١٢١٣ - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨) كان آخر خليفة عباسي في بغداد. حكم بين عامي ١٢٤٢ و ١٢٥٨ بعد أبيه المستنصر بالله. في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨، غزا المغول الدولة العباسية تحت قيادة هولاكو خان. بعد أن سقطت بغداد في أيديهم، أعدم هولاكو المستعصم (١).

بعث هولاكو خان زعيم التتار عام ١٢٥٨ ميلادية أى قبل ٧٤٠ سنة برسالة إلى خليفة المسلمين وحاكمهم المستعصم بالله أرسل هولاكو رسالة إلى الخليفة يطلب فيها منه الدخول في سلطانه دون حرب فاستشار الخليفة كبار رجال الدولة فأشار ابن العلقمي بدهائه السياسي أن يقوم بأمر شكلية يحفظ بها العباد والبلاد كأن يرسل له الهدايا والتحف وينقش اسمه على السكة وهذا في رأيه كفيل بأن يثني الغازي المغولي عن عزمه على فتح بغداد وكان الخليفة يميل إلى هذا الرأي غير أن مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير الذي يستند على تأييد السنين والجيش رفض اقتراح الوزير .

و بينما كان هولاكو خان يعد العدة للهجوم على بغداد كان المعتصم بالله يفتقد إلى الوعي السياسي وكان مشغولا باللهو " قليل المعرفة بتدبير الملك نازل الهمة" (٢)

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٥، دار السلام، ص ٨٤٠.

(٢) حسن، ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام "السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي"، ج ٢، ط ٧، ص ٥٢٣.

كان كريماً حليماً سليم الباطن حسن الديانة. قال الشيخ قطب الدين: كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة، وكان للمستنصر أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشجاعة والشهامة، وكان يقول: إن ملكني الله الأمر لأعيرن بالجيش نهر جيحون وأنزع البلاد من التتار وأستأصلهم فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه والقيادة ليكون لهم الأمر فأقاموه، ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم وأطعمهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء خبر منهم كتبه عن الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلى أن حصل ما حصل. (١)

استدعى المستعصم وزيره ابن العلقمي، وقال له " ما تدبير أمرنا "، فرد عليه ابن العلقمي بببيت شعر يقول : " يظنون أن الأمر سهل وإنما... هو السيف حدث للقاء مضاربة".

الحياة الاجتماعية و العمرانية

وعمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، منها حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات و كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون و خاصة المستعصم بالله" وأهالي بغداد من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان، وقساطيط، وسروج الخيل وأفرشة وبسط.

وقد مكتبة بغداد العظيمة وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمان، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون وعلوم شرعية كتفسير القرآن أو الحديث والفقهاء والعقيدة، والأخلاق ومن علوم حياتية، كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة، وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر، فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك. (٢)

(١) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج٥ ، دار الفكر ، ص ٨١٤ .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٥ ، دار السلام ، ص ٨٤٢ .

استمرت عمليات الترجمة والنهضة العلمية في عهده، غير ما ميز عهد المعتصم بالله هو اهتمامه باقتناء الجنود الأتراك بجلبهم من مناطق آسيا الوسطى كسمرقند وخوارزم، ولقد ملأ الجنود الأتراك بغداد حيث بلغت أعدادهم ما يقارب بضعة عشر ألفاً، أدى ذلك إلى التضييق بأهل المدينة، واضطر الخليفة نتيجة لذلك إلى الانتقال إلى مدينة سامراء التي بناها على بعد ١٠٠ كيلومتر شمالي بغداد لتكون عاصمة له ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار، ويرى المؤرخون أن ميل المعتصم للأتراك يرجع إلى كون والدته تركية، كما أراد أن يحد من المنافسة الشديدة التي كانت قائمة بين العرب والفرس في الجيش والحكومة. (١)

علمت حجم الخسارة الحضارية التي منيت بها الإنسانية، لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، وسبحان الله لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد، وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هـ قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً، وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه، وكان اسمه ((كمبيس)) وحرق ما وقعت عليه يده، من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عهد المعتصم بالله:

المحنا إلى عدم الاستقرار والخوف والاضطراب الذي عم المجتمع ؛ لذا تعطلت الحياة المدنية ولم يستطع الناس ممارسة أعمالهم في أمن وخافوا على أعراضهم وأموالهم ، وكان نتيجة ذلك أن عم الجوع والحرمان قطاعات كبيرة من الناس ، وكان الأثرياء يخافون على أموالهم لذا وجدنا من يُمدح فيبخل في العطاء ، فيهجوه الشاعر في المقام نفسه ، ويُسر الرجل بالهزاء أكثر من المدح ؛ لأنه إعلان لعدم قدرته على العطاء ، وقد كثر ذلك حتى أصبح مدح الرجل وذمه في مقام واحد اتجاهاً ملحوظاً في دواوين شعراء هذا العصر ، وكان ذلك إعلاناً على تفشي الفقر والبطالة ، كما امتلأت الأسواق بالمكدين. (٢)

(١) حسن ، ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام "السياسي ،الديني ،الثقافي ،الاجتماعي ، ج ٢ ، ط٧،ص٥٢٣.

(٢) الصفدي ،الوافي بالوفيات ، ج ٥ ، دار السلام ، ص٨٤٣.

كانت البادية خلال العصر العباسي **الخليفة المعتصم بالله** تمد المدن بفيض من الشعراء ذوي السليقة العربية الأصيلة، وقد تحول بعض هؤلاء الى معلمين يربون الناشئة على العربية الفصحى واداب الشعر القديم، في الوقت الذي كان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في البادية لكنهم استوعبوا ملكة اللغة العربية التي تمثلت في دخالهم فيما بعد حتى اصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية نصاعة وبيانا.

لقد حافظ معظم **الخلفاء العباسيين** على لغة القرآن وحثوا اهل العلم على دراستها والتعمق في معانيها ومعرفة مكنوناتها، فكانوا لا يستوزرون الا من حذق في اللغة العربية وبرع في ادائها وادابها، وكانت مجالس الخلفاء عموما تكتظ باللغويين وعلماء الكلام من امثال الكسائي والأصمعي. وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على الخليفة، فإن استحسناها مضوا ينشدونها، وان لم ذهبوا يصنعون غيرها. (١)

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الأدب العباسي ومضوا متمسكين بقواعد الشعر القديم تمسكا شديدا، وكان اعتقادهم انه لا يجوز تفضيل شعر عصر على غيره من عصر اخر انما كان المراد هو جودة الشعر نفسه بصرف النظر عن عصره، فالجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحدثة، ان الشعر الجيد جيد في كل زمان ومكان

وعلى هذا النحو دفع التحضر بشعراء العصر الى استحداث اسلوب جديد يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الجزلة ولغة الحضرة المليئة بالكلمات المبتذلة وجعلوا منه اسلوبا جديدا اشبه بعنقود من الجواهر اذ تحول الشعراء الى ما يشبه الصاغة، كل يحاول ان يثبت مهارته في صياغة وسبك الشعر من الكلمات التي يكون وقعها في السمع حسنا و تأثيرها في القلب كأثر المطر في التربة الكريمة.

وبشار ابن برد هو في طبيعة من ارسى هذا الأسلوب الجديد فكان شعره انقى من الراح واصفى من الزجاج واسلس من الماء العذب، كما امتاز اسلوبه بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق، هذا ما يصرح به ابن المعتز. (٢)

(١) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج٥ ، دار الفكر ، ص ٨١٥ .

(٢) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٤م، ص ٤٦٧ .

لو استعرضنا الأحداث الأدبية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة لاحظنا وفرة المعلومات التي وردت الى اللغة العربية، فقد جمعت مادتها جمعا مستفيضا صنفت في مباحث متعددة، وكان اللغويون لا يذكرون صيغة لغوية فيها اشتباه. لقد استطاعوا ان يضعوا قواعد النحو العربي وضعا نهائيا ويضبطوا قواعد القوافي والأوزان الشعرية وبذلك اصبحوا قادرين ان يضعوا الأسس اللازمة لصنع المعجم العربي مثلما هو معروف عن معجم العين المنسوب الى الخليل بن احمد معلم سيبويه.(١)

لقد كتب الجاحظ البيان والتبيين الذي اتاح به للشباب ان يقفوا في غير مشقة على خصائص اللغة العربية وادابها الجمالية والموسيقية، اذ اصبح من المتيسر ان يقرأوا اشعارها من دون عناء ويتذوقوها في غير تكلف. و يحسن بنا القول ان مدينة البصرة بدأت تزدهر بسوق باديتها المعروف بالمرید الذي تحول اسمه بمرور الزمن الى مهرجان المرید. المستعصم بالله" كان يجتذب اليه الشباب الطموح للقاء الفصحاء من الأعراب القادمين من البادية تمرينا لألستهم وصقلا لمواهبهم واغناء لمادة اللغة الزاخرة بالجودة والصفاء.

كان الخليفة العباسي المأمون مشجعا للثقافة، فقد حول دار خلافته الى منتدى لأساطين العلم والمعرفة وكبار البلغاء و المترجمين الذين نقلوا الى العربية العلوم اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية وبها غدت بغداد منارا للإشعاع الفكري الساطع الذي توج عصرها الذهبي المنشود. وفي هذا الزمن ادخلت الى بغداد صناعة الورق من الصين قبل دخولها الى اروبا بقرون عديدة، فظهرت مكتبات عامة كمكتبة الحكمة في بغداد ومكتبات خاصة في كل مكان. وحينها وصف الجاحظ شغف العراقيين بالقراءة كأنقضاض الأسد على فريسته.(٢)

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، دار النفائس، ص ٦٥٤.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م، ٤٦٩.

لقد اذكى الإسلام جذوة المعرفة في النفوس ودفعها الى التعلم دفعا قويا، وبذلك انتشرت الكتابات لتعليم مبادئ القراءة والكتابة، فكانت اجور المعلمين في الغالب لا تتجاوز رغيفان من الخبز، و من كان يريد اكمال تحصيله، انتقل الى حلقات الدرس داخل المساجد لينهل العلم من معين اساتذة متخصصون، فكان تأثيرهم على النهضة الحضارية كبيرا، فقد اثمرت عن ظهور بوادير ادبية باهرة واثار علمية رائعة وقصائد شعرية خالدة، افرزت نخبة من اعلام الفكر، كابن سينا في الطب والرازي في العلوم والطبري في التاريخ والخوارزمي في الرياضيات وابن حيان في الكيمياء والكندي في الطبيعيات وابن ماسوية في علم التشريح وابن النفيس في الدورة الدموية والإدريسي في الجغرافيا وابن الهيثم البصري الذي وصفه الكاتب الأمريكي المعاصر ميشيل هاملتون مورغان بأنشتاين زمانه، فيفضل نظرياته تمكن كل من كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن من تحقيق اهدافهم العلمية بعد ستمائة عام من رحيله. ونتيجة لأمتزاج الثقافات دخلت الى العربية الفاظ اجنبية كالفارسية خاصة ما يتعلق بأسماء الطعام والشراب والملبس، و هندية مثل ابنوس والفلفل واللبغاء، وكذلك مفردات يونانية من قبيل القيراط والأوقية والقولنج. هذه لمحات مقتضبة عن الحياة الأدبية المستعصم بالله" في العهد العباسي.(١)

اما اذا اردنا ان نلقي نظرة سريعة على الحياة الاجتماعية، فأقول ان انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق الى بغداد عام ١٣٢ للهجرة بعد معركة الزاب كان ايذانا بغلبة الطوابع الفارسية على المرافق العامة في المجتمع العراقي، فقد قلد العباسيون الساسانيين في عاداتهم وثقافتهم وازيائهم وطرائق معيشتهم وحتى في محاكات عمائرهم، فقد بنى الخليفة ابو جعفر المنصور مدينة بغداد على شاكلة طيسيفون - المدائن - دائرية، مثلما بنى قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم، المتميزة بالدواوين الفخمة، وان اثار سامراء وغيرها لا زالت شاهدة للعيان. فقد اقتبس العباسيون عن الفرس مقومات الحضارة، وعلى رأسها نظام ادارة الدولة، والتشكيلات العسكرية وفنون الحرب بحذافيرها، وصاغوا القوانين صياغة ساسانية جعلت من الخليفة العباسي ملكا كسرويا يحكم الامبراطورية الإسلامية حكما استبداديا دينيا وراثيا مطلقا، يحيط نفسه بهالة كبيرة من التقديس و تحول بعض الفقهاء الى وعاظ سلاطين، ينصاعون لأهواء الحاكم ويعلمون للملأ ان الخليفة هو ظل الله في ارضه. وبذلك ظهر اشع حكم فردي ظالم لا يقيم للشعب وزنا وليس له من الأمر شيئا.(٢)

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، دار النفائس، ص ٦٥٥.

(٢) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، دار الفكر، ص ٨١٦.

كان معظم الوزراء من الفرس، المستعصم بالله" يستأثرون بشؤون الخلافة وينالون أعلى المراتب، يتسم حكمهم بطابع القهر والتعسف لا يعرف رفقاً ولا لينا.

لقد اعتبر الخلفاء العباسيين انفسهم ورثة الخلافة الشرعية وزعموا ان النبي قال لعنه العباس بأن الخلافة ستكون في ولده من بعده، وبهذا الإدعاء الذي ليس له سند، بدأ يلاحقون ابناء عمومتهم العلويين، العلويون الذين كانوا لهم العون الأكبر في اسقاط سلطة بني امية، حتى تجرؤا بالفتك بأنمتهم، كان زعيمهم الروحي موسى بن جعفر اول الضحايا.(١)

لقد تجاهل العباسيون كسلفهم الأمويين دستور النبي الكريم الذي وضعه في المدينة المنورة في السنة الخامسة للهجرة الذي ضمن حقوق وواجبات الرعية في الأمة الإسلامية... ورغم كل ذلك كان يحلو للعباسيين ان يكثروا من ترديد الآية الكريمة من سورة ال عمران – قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير -

كان الخلفاء العباسيون شغوفين بالجواري، فكان لكل منهم جيشاً منهن، يرفلن في ابهى الكساء والحلل، يبالغن في اناقتهن وزينتهن ويتبارين في ثياب السندس والإستبرق ويختلن في الجواهر واللؤلؤ متخذات منها تيجانا واقراطا وخاليل وقلائد. فكان شغف الرشيد بالعربيات وشغف المأمون بالمسيحيات اما شغف المعتصم فكان بالغلماان والجواري التركيات الذي اضطر اخيرا الى نقل مركز الخلافة الى مدينة سامراء ليجنب اهالي بغداد شرهم واذاهم.

لقد انحدر معظم الجواري من دول وثقافات مختلفة، كان تأثيرهن على المحيط العربي بالغا حتى ان قسماً منهن دخلن قصر الخلافة وصار بعض الخلفاء من ابنائهن،

كان الرشيد يستكثر منهن في قصوره حتى تجاوز عددهن عن اربعة الاف جارية، كانت ضياء وخنث وسحر افضلهن عنده ولسان حاله.(٢)

(١) فوزي ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ط١، دار العلم، ص٤٢٥.

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج٤ ، دار النفائس ، ص٦٥٦.

اما اعياد النصارى فكانت كثيرة لكن اهمها كانت عيد الميلاد و الفصح والشجرة وكانوا يزينون رؤوسهم بأكاليل الورد وفي ايدهم الخوص والزيتون كما كانوا يحيطون مجالسهم بالزهور والرياحين ودفئ الشموع. وكان احتفالهم بعيد الفصح متميزا، وعندهم ان نبي الله عيسى عرج الى السماء في مثل هذا اليوم بعد صلبه بثلاثة ايام. كان اكثر مناطق العراق احتفالية هي الدير الأعلى في الموصل ودير سمالو في شرق بغداد وكان عشاق الطرب يسافرون اليها اما عن طريق الدواب او عن طريق نهر دجلة وكان المحتفلون يتبارون في زيههم و زينتهم، يشربون الأنخاب ويضجون في اغاني راقصة صاخبة حتى الصباح وهم مغتبطون، ويصف الشاعر عبد الملك. (١)

كانت البساتين في ضواحي المدن تحتضن الحانات التي كانت تعج بالجواري والغلمان صباح مساء، تخفق لأغانيها المعازف والطنابير والدفوف وتهيئ لروادها اللهو المباح وغير المباح، ومن حولهم الشياطين، يكثر فيها حديث الفسق والصبوة الى جانب ثرثرة المجوس والزنادقة الذين كانوا يفتحون الباب على مصراعيه للتهجم على العرب والنيل من تاريخهم و ثقافتهم بل والدس على الإسلام نفسه متشامخين بحضارتهم القديمة، وكان البرامكة دوما يذكون هذه التحرشات.

وفي هذا الجو المتوتر كان الدور التاريخي للثقافة العربية المرتبط بالمضمون الحضاري الإسلامي الديني والوطني والعربي يتعرض لخطر فقدان الهوية من الجذور.

فقد شككت هذه التصورات الخاطئة ارضية خصبة في اشتداد نزعة الشعبوية التي تتعارض مع الإسلام الذي اعلن منذ اليوم الأول انه لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى، اذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة في ذاتها تعلي من شأن صاحبها. (٢)

(١) فوزي ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ط١، دار العلم ، ص٤٢٦.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ص٨٧٤.

كان الفرس قبل الأسلام مجوسا، والمجوسيه منحدره من الدين الزرادشتي الذي ظهر ٧٠٠ سنه قبل الميلاد، يعتقد بوجود الهين هما - اهورامزدا - منبع النور واصل الخير في العالم و - اهرمن - وهو رمز الظلمة ومبدأ الشر في الوجود، وعندهم النار شعار الطهر، فهم يقصدونها لكنهم لا يعبدونها،

ثم تليها المانوية وهي الفكر المجوسي الثاني الذي ظهر ٣٠٠ سنة بعد الميلاد. تحرم ذبح الحيوان لكنها تبيح الزواج من المحارم وعقيدتهم هي مزيج من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ولها طقوس عبادية خاصة بها.(١)

هكذا كانت هذه المعتقدات الشاذة وبالا على الأسلام، والغريب في الأمر ان المسلمين لم ينتبهوا الى حقيقة المجوسية في بادئ الأمر واعتبروها ضربا من التعاليم السماوية. ونظروا اليها باحترام، لذلك ظلت حية قوية حتى العصر العباسي حينما ادرك الخليفة المهدي ابعاد كفرها فأقلب على معتقبيها بالفتك والتقتيل.

كثر الرقيق في العصر العباسي المستعصم بالله" كثرة مفرطة. فقد انتشرت تجارته الى حد كان سوق النخاسة في بغداد يحمل اسمه. فيه مواصفات الجنسين، من كل دين ولغة ولون وعنصر تعرض تحت اعين الرجال.(٢)

(١) فوزي ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ط١، دار العلم، ص٤١٦.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ص٨٧٦.

كان الناس في المجتمع العباسي يعشقون الغناء، فقد اقترنت موسيقى الطرب لديهم برقة عواطفهم وخلجات نفوسهم، حتى غدت نعيمهم المفضل، تثير فيهم البهجة والسرور الى حد كانوا يستقبلون عذوبة الألحان بالدموع. ولهذا كثرت مجالس الأُنس والسمر وتفشى فيها الغزل الأباحي، كان سببا لأفساد الشباب، هذا الغزل الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل معا،

ورث المجتمع العباسي من الفرس كل ما كان عندهم من ادوات لهو ومجون، فكان عشاق الخمرة يعبون منها ما يشاؤون، حتى اصبح الأدمان عليها ظاهرة عامة، ومما ساعد على انتشارها اجتهاد زمرة من الفقهاء على تجويز بعض انواعها، رغم وجود نص النهي عنها في القرآن الكريم.(١)

كانت في العصر العباسي يجلبن من كل حذب وصوب وكانت اموال المسلمين تنثر عليهن بإفراط شديد. يكفي ان تقوم مطربة بإحياء حفلة غنائية ترضي مزاج الخليفة حتى يأمر لها بمئة الف درهم. وقد بلغ اهتمام الخلفاء بالطرب حدا جعل هارون الرشيد يأمر مغني القصر ابراهيم الموصلي ان يختار له مئة من الأصوات الملائمة والموجودة حاليا في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

لقد اتصفت حياة الخلفاء ومن لف لفهم بالبذخ والترف الصارخ، فكان على الشعب الكادح ان يتسبب عرقا ويتجرع من غصص الحياة ما يطاق وما لا يطاق لينتهي لهؤلاء الحكام اسباب النعيم. (٢)

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص٤١٥.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ص٨٧٨.

يروى المؤرخ ابن طيفون انه دعي الى قصر الخلافة لحضور حفلة زفاف الخليفة المعتصم بالله على عروسته بوران، فبعد الأنتهاء من العشاء الذي كان يتكون من ثلاثمئة لونا من الطعام، قدم الى الضيوف في اواني من الذهب والفضة، وبعدها قام الخليفة واجلس عروسته على حصير منسوج من الذهب ومكمل بأبهى صنوف الجواهر، قدم اليها الف ياقوتة بعد ان اوقد لها شموع العنبر، بعد ذلك بدأ المأمون ينثر مسقول البندق على رؤوس المحتفلين. كانت كل بندقة تحوي على رفاق كتب عليه اسم قرية او جارية او فرس، فالضيف الذي يحظى بواحدة منها يذهب الى الوكيل ليتسلم حصته، فإن كان من نصيبه قرية، غدا حاملها تلك الليلة صاحب ضيعة بما فيها من الكائنات الحية وممتلكات عقار وبساتين ثمر. (١)

تحقيق العدالة الاجتماعية في مقدمة الأهداف لظهور الإسلام؟... فإذا كان الأمر كذلك، فبأي تبرير يتغافل حكام المسلمين من تطبيق هذا الهدف؟؟

ولعل هذه الممارسات وما رافقها من اعتصار الشعب هو السبب في كثرة الثورات على العباسيين، وايضا لعله السبب على اقبال بعض الناس للإيمان بالمهدي المنتظر يدعون الله ان يظهره ليخلصهم من بلواهم وينشر العدل بينهم.

لقد انتشر في المجتمع العباسي مظاهر التآلق والتأنق في الأزياء والزيارات ومراسيم القبول واداب المائدة خاصة في الطبقات الأرستقراطية الناشئة. كما سرى بين النساء الحرائر شغف التهادي بالعبور الفواحة كعطر النرجس والياسمين والمسك والكافور، ينتعشن بطيب اريجها ويتبخترن بعبقها الزكي كما ويتمسحن بدهن الزعفران من المفرق الناقدم، بينما اقتصر شغف العوائل في تزيين بيوتهن بالورد والرياحين، احلى دلالة لمعاني الود والوداد والهام لمشاعر الشعراء في الخصب والخيال. وعلى اثر ذلك كثرت حقول الورد في ضواحي بغداد وفي كل مكان. (٢)

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص٤١٦.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ص٨٧٩.

لقد شاعت في بغداد قولة السوء في الخليفة المعتصم بالله بعد ان اكتظ قصره بالغلّمان، ودرأً للسمعة ارسلت اليه امه زبيده بعشرة من الجوّاري بعد ان البستهن ثياب الغلمان لتصرف ابنها عن سلوكه المنحرف، وبذلك ظهر اول مرة مصطلح الغلاميات في المجتمع العباسي، لعل ذلك هو السر في ان ابا نؤاس كثيرا ماكان يستعمل ضمير المذكر في شعر الغزل.

كان المعتصم بالله مغرما بالخمرة، فقد حول قصر الخلافة الى حانة ليلية على حد تعبير اهالي بغداد، حيث كان لاسبيل له الى احتسائها الا متتابعاء، حتى اذا نام واستيقظ في السحر طلب الى نديمه ابي نؤاس ان يمه بالشراب ليصطحب اليوم التالي وينعم بنشوته غير مبال لحرمة دين ولا لوقار خلافة.(١)

لقد كثرت في زمن ابي نؤاس ظاهرة التخنث عند بعض الرجال، فعندما كانت تسقط عنهم رجولتهم، يلبسون لبس النساء ويتشبهون بهن في الحركات والكلام والتزين كصيف الشعر ووضع الحناء على الاظافر، وكان بالمقابل من يتشبه من الجوّاري بالغلّمان لفتا للشباب.

لم يقتصر نظم الشعر في العصر العباسي على الغزل المكشوف انما كان هناك الشعر العفيف الذي بقى طاهرا تمده منابع الأدب الرصين عند شعراء نجد وكانوا يسمونه بالحب العذري المتسم بالحشمة والأدب.(٢)

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٥، دار السلام، ص ٨٤١.

(٢) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، دار الفكر، ص ٨١٦.

المراجع :

- الصفدي ،الوافي بالوفيات ، ج ٥ ، دار السلام .
- ابن الأثير ،أسد الغابة ، ج ٤ ، دار النفائس .
- حسن ، ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام "السياسي ،الديني ،الثقافي ،الاجتماعي ، ج ٢ ، ط ٧ ، ١٩٦٤م، دار الاحياء و الدراسات العلمية .
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص٤١٦.
- ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،ج ٥، دار الفكر.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.
- ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٤م
- فوزي ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ط ١، دار العلم .

تم بحمد الله